مفصلية العلاقة بين اللغة والهوية

(٩٢٣ كلمة)

ثمة علاقة جدلية شديدة التعقيد بين اللغة والهوية؛ فإذا كانت اللغة تشكل الملمح الثقافي الأهم في هوية أي أمة، وما من حضارة إنسانية إلا وتصاحبها نهضة لغوية، وما من صراع فكري وثقافي إلا ويبطن في جوفه صراعا لغويا حادا، تدخل الهوية، على الجانب الآخر، في جوهر منظومة اللغة، وفي صميم بنيتها وتركيبها، وآلية عملها وكيفية تعلّمها واستعمالها. ويمنح رسوخ الهوية وقوتها وصمودها أمام التحديات مكانتها وسيادتها على ألسنة أبنائها، إذا ما واجهوا صراعا لغويا وحضاريا. ومثلما تُعد الهوية عنوان المجتمع ودليل شخصيته القومية وتفرّده لا تبعيته، تحدد اللغة خصوصية الهوية، فهي التي تجعل للمجتمع والأفراد هوية، وقوة اللغة هي قوة للثقافة وقوة للهوية. وبقدر ما يستطيع المجتمع إثبات هويته الثقافية بمواجهة الآخر المغاير والحفاظ عليها وفرضها، فإنه ينجح في صيانة سيادة لغته القومية والذود عنها أمام التحولات الجذرية والتحديات التي تتهدد العالم بأكمله. إن ما كان يميز المجتمع العربي تاريخيا وعي أبنائه على اختلاف مرجعياتهم وانتماءاتهم بأن هوياتهم تُصان، وكيانهم لن يكتمل، ولن يتحقق استقلالهم، ما لم يحافظوا على لغتهم القومية، ويتخلصوا من وضعية الاستلاب اللغوي التي تتهددهم. فحينما تضعف اللغة وتضيع هيبتها بين أهلها والناطقين بها، تفلت منهم هويتهم، أو هم يفلتون منها. ولأن اللغة هي وعاء للفكر والتفكير، فإن حياة العرب ـ بل البشر كافة ـ على الأرض بُنِيَت على هويتهم، أي على فكرهم وتفكيرهم اللذين هما مقومان رئيسان من مقومات هويتهم.

نظرًا إلى الأهمية البالغة للعلاقة الوثيقة بين اللغة والهوية، يُنبّه إدوارد سعيد إلى أهمية المحتوى الثقافي المنقول بواسطة اللغة في صياغة الحياة اليومية، فاللغة إلى جانب كونها رمزاً قومياً مركزياً وجوهر الهوية، لها مفعول قوي في ممارسة الثقافة القومية، بما تحويه من مسرح وروايات وحكايات شعبية وكتب وصحف ومناهج تعليم... إلخ. فبواسطة هذه الممارسة تنظم اللغة

الذاكرة الجماعية للأمة، وتُعززها وتصيغ التعبير عن المشاعر الوطنية. ومن هنا تبدو إمكانية الحديث عن هوية مجتمع أو أمة من دون لغة خاصة بهم تميزهم، أمرا مستحيلا، كما يغدو الحديث عن بقاء لغة قومية حية وسائدة لقوم تذوب هويتهم أو تُطْمَس، حديثا غير منطقي، فاللغة والهوية أمران متعادلان متلازمان. ومن ثم لا توصف أي دراسة لإحداهما بالاكتمال والشمول والثراء والمعنى، ما لم يدخل البعد الآخر في القلب منها.

بسبب هذه العلاقة المفصلية بين اللغة والهوية العربية دأبت القوى الاستعمارية دائما على إضعاف وتقويض مكانة اللسان العربي في عقر داره، أي في المجتمعات العربية التي تحتلها، إدراكا منها بأنها إذا نجحت في هذا الهدف، يتعرض المجتمع العربي لحالة من الانسلاخ وتمييع هويته، وتضعف فيه روح المقاومة والكفاح، ما يجعله خاضعا، يسهل السيطرة عليه واستغلاله. هذا هو ما حاولت بريطانيا حينما دخلت مصر، وما فعلته فرنسا حينما احتلت المغرب العربي، إذ سعت كل منهما إلى إحلال لغتها الإنكليزية أو الفرنسية محل العربية، باعتبارها لغة رئيسة في العلم والتعليم والتفاعل، وهو ما يُبعد العربية من مواقع السيطرة والسيادة في موطنها. وكان من شأن نجاح هذه السياسة أن لا يجد المستعمر مقاومة لوجوده في الدولة والمجتمع المحتل إذا ما تعلم ناشئوه بلغته الاستعمارية، لأنه سيخلق نخبا وعقولا مرتبطة به ومتشرّبة ثقافته، مُتعاطفة مع وجوده وهيمنته، وبالتالي تتحول هذه النخب إلى فواعل لربط مجتمعاتهم ودولهم بالمجتمع صاحب اللغة التي تعلموها وتشربوا فكرها وقيمها، وبدلا من أن يكونوا قادة فكر واستنارة لشعوبهم ووطنهم، يربطونهم بعجلة المستعمر اقتصاديًا وثقافيًا وسياسيًا.

لذلك كان من الطبيعي أن تحرص المجتمعات الحية على لغتها القومية في لحظات الضعف وفترات الهزيمة أو الخضوع للآخر، وهم يتمسكون باللغة في هذه الظروف على نحو أشد وأقوى، إيمانا منهم بأنها سبيلهم إلى الحفاظ على كينونتهم الجماعية وهويتهم الثقافية والقومية، فهي حائط الصد الذي يمكنهم من مواجهة الانهيار الثقافي والحضاري. ولا نعدم في التاريخ الحديث قادة وزعماء كانوا شديدي الفطنة لأهمية اللغة القومية في صيانة استدامة الهوية ومِنعَتها، ومن ثم

فرضوا لغاتهم القومية في مراحل التعليم العام والجامعي كافة، حتى لو كانت هذه اللغات محصورة في شعوبها، فقادة فييتنام وكوريا وإسرائيل جعلوا اللغات الفييتنامية والكورية والعبرية لغة التدريس الرئيسة في جامعاتهم ومؤسساتهم التعليمية والبحثية. وفي فرنسا عندما استشعر القادة أن اللغة الفرنسية مهددة بسبب هيمنة الإنكليزية باعتبارها لغة كونية، ووجد الزعماء أن علوما كثيرة تدرس في المؤسسات التعليمية الفرنسية باللغة الإنكليزية، وأن القائمين على وسائل الإعلام يستعملون لغة مليئة بالمصطلحات الأميركية، إلى حد أنها لم تعد تخضع لقوانين النحو الفرنسي المعهودة لديهم، وانتشرت هذه الظاهرة إلى مجالات التعامل اليومي، وبدأ قسم من الطبقة الوسطى الفرنسية يتأثر بالمفردات والتراكيب اللغوية الأميركية، من هنا شرعت الدولة في إيجاد الحلول الملائمة لهذه المشكلة. فصدرت تدابير عديدة، منها: الاتحاد الفرنكوفوني الذي يعتمد على اللغة الفرنسية أساسا للهوية الثقافية الفرنسية.

أصبح أمر تعزيز اللغات القومية الشغلَ الشاغلَ لكثير من دول ومجتمعات العالم المعاصر، ومن مؤشرات ذلك تنامي نزعات التكتلات اللغوية باعتباره إجراءً احترازيا لمواجهة الهيمنة الطاغية للغة الإنكليزية. فكانت الاتحادات الفرنكوفونية والإسبافونية وتحالف اللغات الإسكندفانية، ومحاولات الكومونولث الروسي إحياء التحالف اللغوي بعد تفكك الاتحاد السوفياتي السابق، إضافة إلى حركة الإصلاح اللغوي (١٩٦٦) التي قامت بها ألمانيا للحفاظ على لغتها القومية. هذه المحاولات كلها إنما نتجت من وعي وطني قوي بأهمية اللغات القومية في الحفاظ على هويات هذه المجتمعات والأوطان، وأن الأمة التي يُسرَق لسانُها أو تهجره طواعية وتتنكر له لحساب لغة أو لغات أجنبية في التعليم والبحث والدرس والمجال الثقافي برمته، إنما تغدو مهددة بتفكك في شخصيتها القومية، وضعفٍ أو طمسٍ أو مسخٍ في هويتها، والبتر من ماضيها وتراثها، فيظل محكومًا عليها بأن تبقى تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر حتى بعد أن يجلو عن أرضها. لكن ما الذي فعله ويفعله العرب الآن بلغتهم القومية، وبالتالي هويتهم؟ وهل أثمرت حقًا الاجتهادات المتناثرة للحفاظ على اللسان العربي في مؤسسات التعليم والبحث وجل فضاءات التفاعل اليومي،

أم أنها ظلت كليلة غير باضعة؟ إننا لا نجد خير ختام للحديث عن مفصلية العلاقة بين اللغة والهوية الوطنية سوى ما قاله في حقهما شاعر صقلي اجنازيو بوتيتا: "ضع شعبًا في السلاسل، جرّدهم من ملابسهم، سد أفواههم، لكن ما زالوا أحرارا... إن الشعب يفتقر ويُستعبد عندما يسلب اللسان الذي تركه الأجداد، وعندها يضيع للأبد".